

السياسة الاستعمارية وإجراءاتها ضد التعليم العربي الاسلامي في الجزائر

أ/سعودي أحمد

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

جامعة عمار ثليجي - الأغواط

مقدمة:

كانت فرنسا قد شرعت في إحتلال الجزائر سنة 1830م، وأخذت في تثبيت إستعمارها لها، ولكنه لم يكن احتلالا كغيره من أشكال الاحتلال (...) فهو لم يقف عند إغتصاب المستعمر للدولة والإدارة التي كانت للجزائريين على أرض وطنهم، وإنما ذهب المستعمر الفرنسي أكثر من ذلك، فأراد سحق الهوية القومية للشعب، وإلغاء عروبتهم، لأنها رمز مغايرتهم للفرنسيين، وهو قد أراد بذلك أن يكونوا فرنسيين، حتى لا يكون وطنهم مستعمرة فرنسية، وإنما الإمتداد الإفريقي للوطن الفرنسي عبر البحر الأبيض المتوسط (...) كما ذهب المستعمر أيضا إلى مسح الإسلام، حتى يزيل طابعه القومي العربي في البيئة العربية الجزائرية وينزع منه عوامل المقاومة، فيتحول من شوكة بحلق الاستعمار إلى قيد يثقل خطى المناضلين في سبيل الحرية والاستقلال....."²¹¹.

وعليه فإن هدف الاستعمار كما يُقر أحد مفكري الاستعمار الفرنسي، الكاتب الصهيوني (ماكس نوردو) هو: "إن شمال إفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية وأما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب إلى الصحراء الكبرى إلى أن يفنوا هناك".

وضمن هذا السياق وضعت فرنسا مجموعة من الآليات لتحقيق مشروعها بفرنسة الجزائر واعتبارها جزءا لا يتجزأ من فرنسا الأم، وقطع أية صلة للجزائر ببعديها العربي والإسلامي، ولاشك أن التعليم كان من أوائل القطاعات المستهدفة، من طرف المستعمرين، فهو الذي يبني ويحصن هذه الشخصية العربية الاسلامية للجزائريين.

سلكت فرنسا منذ البداية سياسة إقصاء اتجاه أبناء الجزائر تعتمد على التجهيل والأمية، حتى يمكنها أن تحكم سيطرتها التامة عليهم ولم تسمح لهم بالتعليم، إلا في حدود ضيقة للغاية.²¹²

ووجهت فرنسا الضربات المتتالية، للتعليم العربي الاسلامي في الجزائر والذي أكدت كل الدراسات التاريخية المختصة، أنه كانت في حالة جيدة قبل الاحتلال، فقد كان التعليم ذو مستوى رفيع، يشع في كل أنحاء القطر²¹³ وفق مجموعة من الإجراءات، نستعرض فيما يلي أهمها:

1/ إعتبار اللغة العربية لغة اجنبية:

²¹¹ - محمد عمارة، تحديات لها تاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1982، ص 249.

²¹² - عمار عمورة، موجز من تاريخ الجزائر، ط 1، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ص 126.

²¹³ - y, Turin, Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale, ecoles, médecines, religion, 1830-1880, Paris, 1971, p132.

إذا كانت اللغة بمثابة القلب النابض والروح الحية من أي شعب، ووعاء أنشطته الثقافية والحضارية، وأحد مقومات وحدته، فإن فرنسا عملت على إقصاء وقتل اللغة العربية وفرض لغتها على الشعب الجزائري لنسف وحدته وإغتيال شخصيته وإخضاعه لنفوذها .

وفي ذلك موقف واضح ليس من اللغة العربية فقط ، بل من الاسلام أيضا، فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، والوعاء الذي حفظ الحضارة العربية الاسلامية مع مر العصور، وهو أيضا موقف سياسي ،على اعتبار أن اللغة العربية ، كانت اللغة الرسمية في الجزائر في الفترة العثمانية ، بإستثناء الجهاز المركزي في العاصمة الجزائر، فإن إدارة الأقاليم والأوطان والجماعات والمحاكم والمدارس ، كانت كلها بالعربية، وعليه فإن إحلال اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية في إدارة البلاد ، هو نفس لأحد أركان سيادة الدولة الجزائرية.

وعلى سبيل المثال فإن رئيس وزير داخلية فرنسا الماسوني "كميل شوطون " أصدر في 1938/03/08 م مرسوما يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ، وهو القرار الذي جاء ليؤكد حقيقة واقعة منذ أمد بعيد، وقد إتخذ كل ذلك ذريعة عدة مرات لإيقاف صحف جمعية العلماء ومدارسها ومحكمة معلمها ورجالها و إخماد سائر انشطتها.

وبصدور قرار 1938م بلغت محاربة اللغة العربية والتعليم العربية ذورتها، فالشيخ "محمد خير الدين"، أحد القادة البارزين في جمعية العلماء يصف هذا القانون بأنه يجعل التعليم العربي بالمستحيل ويشكل ضربة قاتلة للدين الإسلامي .²¹⁴

وكان كل ذلك في غطار سعي المحتل الفرنسي لتحقيق فرنسة الجزائر لغويا بإحلال الفرنسية محل العربية فقد كتبت أحد التقارير التي وضعت سنة 1847 "إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها والعمل الجبار الذي يتحتم علينا أنجازها هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية وهذا هو السبيل لانتمائهم إلينا وتمثيلهم بنا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين...²¹⁵

2/ محاربة التعليم العربي الإسلامي :

لم تتقبل فرنسا في الجزائر وجود ما يعرف بالتعليم العربي الاسلامي، باعتباره منتجا للتعصب والتطرف لدى الجزائريين، ومحركا لأحاسيسهم المناوئة للإحتلال، فكثير من المقاومات كانت تخرج من رحم الرباطات والزوايا والكتاتيب، وتتكون جيوشها من طلبة التعليم العربي الاسلامي ومن يقودهم هم شيوخ الزوايا وعلماءها، فشرعت فرنسا في عرقلة التعليم العربي الاسلامي وكل محاولة لفتح المدارس الداعمة له، بمقتضى عدد من القوانين والقرارات الجائرة التي تنم عن حقد أعمى لكل ما يخدم العلم والتحضر في هذه البلاد، و فكانت قوانين تخنق كل جهود التعليم لدى الجزائر مثل:

²¹⁴ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997، ص26.

²¹⁵ - محمد عمارة ، المرجع سابق، ص94.

- قانون الأهالي: الصادر في 28 يونيو 1881م
 - قانون 18 يناير 1887م: الخاص بتنظيم التعليم العام.
 - قانون 18 أكتوبر 1892م: الخاص بتعليم الأهالي الجزائريين الابتدائي العام والحر.
 - قانون 27 سبتمبر 1907م/ قانون 8 مارس 1938م. المتعلق بمراقبة المساجد والكتاتيب الأهلية.
 - قانون 6 أغسطس 1943م: الخاص بفتح المدارس الحرة الإسلامية.
 - قانون 27 نوفمبر 1944م: الخاص بتسيير التعليم الحر في الجزائر.²¹⁶
- وكلها قانون تجتمع على فلسفة ان الجزائريين أهالي "Indigènes" لا يرقون إلى رتبة المواطنة والتي تتيح لهم العديد من الحقوق ومنها حق التعليم.
- فقانون 1884/12/24م مثلاً، نص على أنه يُمنع على أي جزائري أن يفتح أو يتولى إدارة "مدرسة عربية أو كتاب أو تعليم القرآن الكريم، إلا بترخيص خاص من عامل العمالة ، وينذر هذا القانون كل فرد أو جماعة تقوم بفتح مدرسة عربية بدون ترخيص مسبق من إدارة الاحتلال إما بالسجن أو بالغرامة.²¹⁷ وقد فرضت الرقابة على المدارس أيضاً بموجب منشور ميشال²¹⁸ الصادر في عام 1933م، وهو عبارة عن تعليمات إدارية موجهة إلى رجال الأمن والإدارة الفرنسية في شتى نواحي القطر بمراقبة العلماء والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهمتهم الدينية وتعليم اللغة العربية بدعوى أنهم يبتون المبادئ الوهابية والمذهب الشيوعي²¹⁹

3/مصادرة الأوقاف والمدارس الإسلامية

إضافة إلى الإجراءات المتخذة من السلطات الفرنسية لطمس معالم الشخصية الجزائرية وتجهيل شعبها، لجأت فرنسا منذ أن وضعت أقدامها على التراب الجزائري ، إلى محاربة ومصادرة معظم المؤسسات الوقفية الإسلامية في أنحاء الجزائر ، باعتبارها الراعي والممون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية في الجزائر منذ عهود طويلة، ولأنها تشكل عائقاً كبيراً يحول دون نجاح المخطط الاستعماري في فرنسا وتنصير الجزائريين وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين إلى القول " إن الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتناقى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر²²⁰ " وكان الاستعمار في ذلك مخالفاً لنصوص معاهدة

²¹⁶ - الأبراهيمي، مصدر سابق، ص 433.

²¹⁷ - جاكز لحسن، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931-1956، دار العرب للنشر، 2003، ص 199.

²¹⁸ - ميشال، كان يشغل مدير الشؤون الأهلية والكتاب العام الولاية الجزائر، العامة أنظر: جاكز لحسن جمعية العلماء المسلمة

الجزائريين في مدينة في مدينة معسكر، 1931-1956، دار العرب ، للنشر، 2003، ص 199.

²¹⁹ - مما يؤكد تخطط الإدارة الفرنسية عندما تتهم المدارس العربية الإسلامية في الجزائر ، خاصة مدارس جمعية العلماء المسلمين ، بنشر الشيوعية.

²²⁰ - عمار عمورة المرجع السابق صص 124-127

الاحتلال التي إلزم فيها كاذبا باحترام المقدسات الدينية والثقافية للجزائريين²²¹. والتي تعهدت فيها فرنسا باحترام مؤسسات الجزائريين الدينية ومنها المساجد والزوايا²²²، ففي 8 سبتمبر 1830م أصدرت السلطة الفرنسية مرسوما يحدد ملكية الدولة و يسمح لها بالاستيلاء على أملاك الأتراك وما تركوه من أملاك وقفية، وفي 7 ديسمبر 1830م أصدر الجنرال كلوزال²²³ قرارا آخر يبيع بانتقال الاحباس إلى المعمرين الفرنسيين، ليظهر القرار الأخطر سنة 1873م والذي بموجبه، صودرت نهائيا كل أملاك الأوقاف²²⁴. وهو ما شكل ضربة قاسية لكل من التعليم العربي الاسلامي والممارسات الدينية وحتى مظاهر التضامن الاجتماعي في الجزائر، والتي كانت تعتمد بشكل كبير على هذه الأوقاف المختلفة، تموينا وتأطيرا.

ونتيجة لهذا التصرف الاستعماري أغلقت السلطات الفرنسية سنة 1830 في مدينة الجزائر لوحدها 13 مسجدا كبيرا و 32 جامعا و 12 زاوية، وتم تحويل العديد من المساجد إلى إسطبلات ومستودعات ومستشفيات عسكرية وكنائس ومن بينها مسجد كتشاوة المشهور الذي حوله الجنرال " دي روفيقو"²²⁵ سنة 1832م إلى كنيسة نصب الصليب وعلم فرنسا على الصومعة بمباركة البابا غريغوار رغم معارضة المفتين والسكان الذين سقط العديد منهم قتلى دفاعا عن المسجد .

وهكذا أصبحت أملاك الوقف الإسلامية تخدم العمليات التبشيرية المسيحية التي ارتبطت بالاحتلال منذ الوهلة الأولى، ففي سنة 1835م إستقر بالجزائر العاصمة أخوات القديس يوسف ومن بعدهم الراهبات والثالوثيات والجزويت وشرعن في عملهم التبشيري إلى غاية 25 أوت 1938 حيث أسست أسقفية الجزائر وتزايد عدد رجال الدين بتزايد عدد المستوطنين الأوروبيون²²⁶.

ويلاحظ أن موقف الاحتلال من اللغة العربية والثقافة العربية والدين الاسلامي كان منسقا ومدرسا، يهدف إلى القضاء عليها في آن واحد تماشيا مع السياسة الفرنسية في شقها الديني والثقافي القاضي بفرنسة

²²¹ - تركي رابع، التعليم القومي العربي الاسلامي والشخصية الجزائرية (1830-1962)، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1981، ص 103.

²²² - أنظر نص البيان في، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار البصائر، الجزائر، 2007، صص. 421-422.

²²³ - الجنرال كلوزيل: تولى الجنرال كلوزيل قيادة الادارة الفرنسية في الجزائر مرتين، الأولى سنة 1830م-1831م والثانية 1835م-1836م، وكان شديد الحماس للاستعمار، ولذلك شن حملة صد الجزائريين المعارضين للاحتلال الفرنسي فنفي بعضهم إلى المشرق، ونفى آخرين إلى فرنسا وشرذ وسجن الباقي في الجزائر نفسها (أنظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 139).

²²⁴ - عمار عمورة المرجع السابق ص 124

²²⁵ - دي روفيقو: الدوق دور وفيكو وإسمه سانوري رونيه دوق 1774م-1833م تولى منصب وزير الشرطة أيام تابلون بونابرت، ثم حاكما للجزائر أظّر: بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2010، ص 31.

²²⁶ - عمار عمورة، المرجع السابق، ص 124.

وتنصير ، فقضي على معظم مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التي تتمثل في المدارس والجامع والزوايا القائمة في البلاد قبل الاحتلال على لتبدو الصورة قائمة وكارثية فقد كان في مدينة قسنطينة مثلاً قبل دخول الاحتلال إليها عام 1837م (80مدرسة و7معاهد و300 مدرسة وزاوية) لم يبق منها بعد الاحتلال سوى 30 مدرسة فقط²²⁷.

4/ إنشاء المدارس الدينية المسيحية :

تأسست هذه المدارس ابتداء من سنة 1878م، حيث كان يسيرها رجال دين مسيحيون لتقوم مقام المدارس الرسمية في خدمة المجهود الاستعماري ولكن بوسائنا اقل عنفا وأكثر تدميرا ، لأنها تدمر الانسان الجزائري العربي المسلم من الداخل عبر تخطيط مقومات شخصيته الحقيقية، حيث فتحت أبوابها للتلاميذ المسلمين في بعض المناطق الجزائرية كمنطقة القبائل الكبرى²²⁸ التي سجل فيها 21 مدرسة مسيرة من طرف الالباء الابيض يدرس فيها 1039 تلميذا حتى من مناطق داخلية مثل البيض وورقلة قصدت فريخ جيل من الجزائريين سيخدم الصليب مستقبلا ومن كل أنحاء الجزائر، وتجريد بعض النواحي من ثوب العربية والدين، وكان هذا التعليم مفصول عن الحكومة له صبغة تربوية مهنية لا تخلوا من الطابع التبشيري والتمسيحي مشجعا من طرف السلطات الاستعمارية عكس تعليم القرآن والمبادئ الإسلامية واللغة القومية لأبناء شعب ينتمي إلى حضارة عريقة عربية إسلامية .

كما أنشأت ثلاث مدارس حكومية بموجب مرسوم مؤرخ في 30-09-1850م قصد إبعاد الجزائريين عن تعلم كتاب الله وتحفيظه في الزوايا التي كان الاستعمار يراها خطرا عليه ويهدف تكوين أعوان له من الجزائريين يسهلون تحكمه ومراقبته للجزائريين عبر الادرات والمكاتب العربية المختلفة التي كان يحتاج فيها للعنصر الجزائري في مواجهة أخيه الجزائري، وفي البداية شيدت هذه المدارس كل من تلمسان وقسنطينة والمدية ثم حولت إلى العاصمة سنة 1859م وقد نجحت في تكوين مرشحين للوظائف الدينية أو التعليمية لمن إرتضت فرنسا تكوينهم وتوظيفهم من المتعاملين معها ولخدمتها.

إلى جانب تأسيس المدارس المسماة بالعربية الفرنسية بموجب قرار مؤرخ في 14-07-1850م بلغ تعدادها 40 مدرسة ابتدائية على مستوى كل واحدة منها قسم واحد لتعليم الجزائريين وقد بنيت مابين 1850 إلى 1873 ثم أغلق معظمها اثر حوادث 1871م أين ألغيت نهائيا سنة 1883 أي السنة التي أحدثت فيها القوانين الفرنسية المتعلقة بإجبارية التعليم العمومي المجاني حيث بلغ عدد التلاميذ 4095 تلميذا وبطبيعة الحال فالمعمرين الفرنسيين كانوا يعارضون كل هذه التدابير التي تظهر اهتماما لفائدة تعليم أبناء الجزائر وكانوا يعارضون فرنستهم لكي لا يصبحوا سواسية معهم يتمتعون بحقوق الحاملين للجنسية الفرنسية.

²²⁷ - نفسه، ص103.

²²⁸ - وظفت فرنسا العامل العرقي في التفرقة مابين الجزائريين مدعية أن البربر في الجزائر هو من أصول أوروبية ومسيحية، فيما إعتبرت العنصر العربي والاسلام عنصرا غازيا لمنطقة شمال إفريقيا.

لكن الكثير من الجزائريين قرروا مقاطعة هذه المدارس الفرنسية وعدم تسجيل أبنائهم فيها لأنها لا تحقق أهدافه ولا تلائم تقاليدهم بل هي ضد الحضارة العربية الإسلامية وتقصد الفرنسية وتمسح الجزائريين .

5/ نفي العلماء

عامل الاستعمار الفرنسي العلماء والمتقنين الجزائريين المناهضين لسياسته بقسوة شديدة، فقام ضدهم بالتمثيل والنفي والزج في السجون، حتى أنه طارد واضطهد كل عالم للحيلولة تأدية واجبه نحو المجتمع.²²⁹ ومن أوائل المثقفين والعلماء الذين قامت فرنسا بنفيهم نذكر حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب المرأة ومحمود ابن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود حمدان بن عثمان خوجة :

ينتمي حمدان بن عثمان خوجة الى أسرة جزائرية عريقة كانت تمتلك الاراضي الشاسعة في سهول متيجة فكان والده حمدان فقيها وأميناً عاماً للإيالة (مكتابجي) يشرف على الحسابات الادارية و (الميزانية)²³⁰. ولا تحدد الوثائق والكتب والمجلات التي تكلمت عن حمدان تاريخ ميلاده، وحسب مقاله هو بنفسه أنه عاش في الجزائر إلى أن بلغ 60 من عمره وعلمنا انه غادر البلاد نهائيا سنة 1833م فيمكن القول انه ولد في حدود 1773 م ،وقد نشأ حمدان نشأة مرضية في جو مناسب للتعليم ومساعد على التثقف . وحفظ حمدان كتاب الله عز وجل وأخذ بعض المبادئ في العلوم الدينية على يد والده وتكون وهو في سن الحادية عشرة²³¹. ليرافق سنة 1784 م خاله إلى اسطنبول وبعد رجوعه شرع في الدراسة الثانوية والعالية تحت إشراف والده الى جانب أنه تتلمذ على يد أستاذه آخرين.

نجح كل ذلك في أن يجعل منه شخصية متعلمة وواعية، وبالإضافة إلى تبحره في العلوم وغوصه في ميادين المعرفة فإنه قد إهتم بإتقان اللغات إلى جانب العربية حيث كان يجيد التركية إلى جانب انه كان يتكلم الفرنسية والانكليزية بطلاقة لكنه لم يكن يجيد الكتابة (أي اللغتين السابقتين) وامام هذه الثقافة الواسعة كان حمدان خوجة من القلائل الذين تركوا للمؤرخين والباحثين عددا من الوثائق الهامة حول مأساة الجزائر والمصائب التي أصابت أبنائها وكذلك بعض الرسائل في الفلسفة والطب والتصوف²³².

ولما رأى حمدان خوجة تمادي سلطات الاحتلال في السلب والنهي والتنكيل العشوائي بالشعب الجزائري ومصادرة أملاكه، تخلى حمدان خوجة عن مواقفه المهادنة للاستعمار فأعلن بصراحة رفضه لتلك الممارسات كما عارض بشدة الاستيلاء على المساجد التي كانت تهدم أو تحول فيما بعد إلى كنائس ومرافق إدارية بل وحتى إلى مرابط للخيول وقد راسل السلطات الفرنسية في الجزائر وفي باريس مطالبا أيها بوقف تلك المظالم والاعتداءات في

²²⁹ - محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، الجزء الأول، مطبعة إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص20.

²³⁰ - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تعريب: محمد العربي الزبيري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص11.

²³¹ - نفسه ، ص12.

²³² - حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق، ص ص12-15.

حق الجزائريين وباحترام المواثيق والعهود التي أعطتها لهم في معاهدة الاستسلام التي أمضاها الداي حسين والقائد الفرنسي دي بورمون، في 5 جويلية 1830م ويروي حمدان خوجة أنه حين احتج لدى الجنرال كلوزيل عند خرق الجيش الفرنسي لشروط المعاهدة أجابه كلوزيل "فرنسا غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق لأنه لم يكن في نضرها سوى لعبة حرب.

ورغم أنه سبق له أن قبل بأداء بعض المهام الصالح لفرنسا إلا أنها لم تقضي على شعوره الوطني فضل يناضل من أجل تحرير بني قومه واسترجاع سيادتهم وهذا ماجعل المعمرين يتآمرون عليه ويكثرون من الشكايات ضده، واتهموه أنه يدافع عن المفتي الحنفي وبأنه يشيع وينشر بين الناس أخبارهزيمة الفرنسيين ونتيجة لمواقفه السياسية الجريئة ودفاعه المستميت عن مصالح الشعب ومقدساته عزلته سلطات الاحتلال من وظائفه وضيق الخناق عليه وجردته من أملاكه ثم قامت بنفيه سنة 1833م كما نفت عددا لا يستهان به من أعيان ومثقي مدينة الجزائر.²³³

إلى جانب ذلك ساهم حمدان في تشكيل اللجنة الإفريقية في السابع من شهر جويلية سنة 1833م وقام بتزويد هذه اللجنة بمعلومات قديمة فبدأ أولا في كتابة المرأة الذي يعتبر مصدرا أساسيا لكتابة التاريخ الجزائري في الثلث الأول من القرن التاسع عشر وأرسل منه نسخة إلى أعضاء اللجنة أرفقها برسالة يناشدهم فيها بالقيام بالعدل والالتزام بالنزاهة، ومن باريس أيضا قام بمراسلة السلطان العثماني وأعيان دولته طالبا منهم أن يتدخلوا لإنقاذ الشعب الجزائري من براثن الاستعمار بالإضافة إلى هذه الاتصالات بالمسؤولين الفرنسيين وبالباب العالي كان حمدان يبحث عن المعونة في أماكن أخرى من مختلف العالم.²³⁴

فشخصية حمدان خوجة تعتبر من ألمع وجوه المقاومة السياسية في الجزائر إلى أن غادرها مكرها نحو باريس متوجها إلى القسطنطينية عن طريق مانتز يوم 28 يوم 1836م ليتوفي هناك في الفترة ما بين 1840م و1845م²³⁵

أما ابن العنابي و اسمه الكامل هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري وشهرته ابن العنابي، ولعل جده الحسين هو الذي أخذ هذه التسمية أولا وتولى الإفتاء الحنفي كمنصب لشيخ الإسلام لايفوقه بذلك في الاعتبار سوى الداي أورئيس الدولة، وأشتهر جده الادنى محمد بن حسين بالعالم وحظي بالتقدير الكبير، مما رشح ابن العنابي للوظائف الكبرى، تساعده في كل ذلك امكانياته الفكرية التي فرضت احترامه وتقديره أما أبوه فهو ابن العنابي حسين فقد كان فقيها ومفسرا

وتثقف ابن العنابي ثقافة واسعة منذ صغره، فهو حافظ وناقل أكثر منه مفكر ومجتهد فقد تلقى العلم في وطنه على يد جده وعلى والده كما تلقاه على يد المفتي المالكي على بن عبد القادر بن الأمين في زمانه، فكان

²³³ - سليمة كبير، حمدان بن عثمان خوجة: أول ناطق باسم القضية الجزائرية، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر، الجزائر، ص22.

²³⁴ - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص42.

²³⁵ - نفسه، ص43.

عميق الثقافة سواء منها تلك التي تمت بالصلة إلى العلوم الدينية أو علوم الدنيا²³⁶. أما وظائفه فكان أولها منصب القضاء الحنفي الذي ولاه إياه أحمد باشا (1805-1808م)، بالإضافة إلى مهمة ثانية وهي الكتابة إلى باي تونس ويختفي اسم ابن العنابي ولا يعود إلا في عهد عمر باشا (1814م-1816م) الذي كلفه بسفارة المغرب الأقصى وبذلك يتضح أن ابن العنابي لم يكن مجرد عالم بالفقه وما يليه من علوم الدين بل كان أيضا دبلوماسيا ناجحا وخبيرا لشؤون الدول وقد أخذت وظيفة المفتي تتعرض إلى تقلبات خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر، فأضحى ابن العنابي نتيجة لذلك موضع شبهة من سلطات الاحتلال خاصة عندما أجبره كلوزيل على تسليم بعض المساجد لجعلها مستشفيات للجيش، وقد اتسمت لهجة ابن العنابي بالنقد اللاذع للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداوي حسين باشا والكونت دي بورمون مما جعل كلوزيل يضيق به ذرعا فاعتزم على وضع حد له فتم إلقاء القبض عليه من طرف رجال الدرك وقادوه إلى السجن، كما أهينت أسرته بدعوى تدبير مؤامرات ضد الفرنسيين و السعي لإعادة الحكم الإسلامي إلى الجزائر ثم قرر كلوزيل نفيه من الجزائر في مهلة ضيقة، ولم يحصل له حمدان خوخة على مهلة عشرين يوما من أجل أن يبيع أملاكه²³⁷. وتصفية ديونه إلا بصعوبة كبيرة ثم ترك وطنه منفيا، لأخر مرة قبل نهاية 1831 وانتهى إلى مصر فأقام بالإسكندرية حيث ولاه حاكمها القضاء والافتاء الحنفي والمالكي، وألتف حوله تلاميذ وعلماء من الأزهر بعد أن تصدر لتدريس الحديث والفقه فأجاز الكثيرين من تلاميذه في مصر وتونس وغيرها²³⁸.

توفي المنفي الجزائري ابن العنابي بمصر سنة 1851 م ومن أهم مؤلفاته التي تركها " السعي المحمود في نظام الجنود " ويشرح في هذا الكتاب نظم الجيش الحديث وضرورة الأخذ بالأسباب الحضارية حتى لا يبقى العالم الإسلامي فريسة سهلة لأطماع الأوروبيين وغزوات جيوشهم المنظمة والقوية²³⁹.

6/تهريب الكتب ولا مخطوطات

نهب الاحتلال التراث الثقافي العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية من مخطوطات ووثائق وكتب، فقد قام ضباط جيش الاحتلال الفرنسي وجنوده، ينهبون المكتبات الجزائرية سواء كانت عامة أو خاصة وذلك بإرسالها إلى ذويهم في فرنسا أو بيعها لتجار الكتب الأوروبيين إلى جانب المكتبات التي أحرقوها مثل مكتبة الأمير عبد القادر التي تمت بعثرتها وتدمير جزء كبير من محتوياتها .

ولعل اقسي تجربة مرت بها المكتبات الجزائرية هي الاحتلال الفرنسي وما رافقته من حروب وما نتج عنه من تخريب؛ وقد روى الفرنسيون أنفسهم قصصا مثيرة عما وقع لمكتبات قسنطينة ومعسكر وتلمسان وغيرها إلى جانب

²³⁶ - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 349-352.

²³⁷ - عبد المجيد بن نعيمة، المرجع السابق، ص 265.

²³⁸ - نفسه، ص 266.

²³⁹ - آسيا تميم، الشخصيات الجزائرية: 100 شخصية، دار المسك للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 40.

ما وقع مكتبة الشيخ ابن الفكون في قسنطينة، ثم ما وقع لمكتبات الجامع الكبير وغيره من المساجد وفي معسكر وتلمسان وبجاية والعاصمة وعنابة؛ ومكتبات الزوايا والمكتبات العائلية في مختلف أنحاء القطر، فلا حصر للمكتبات التي أرسلها الفرنسيون هدية إلى مكتباتهم المحلية في فرنسا.

وكان بيرو بروجر قد رافق الحملة على قسنطينة وأخذ يجمع المخطوطات من المساجد وغيرها ومن أيدي الجنود بل حتى من الشوارع حيث كان لكل جندي قرآنه كما يقول، وهو يعني بالقرآن كل كتاب مكتوب باللغة العربية وقد جمع حسب التقارير ما يزيد عن ثمانمئة مخطوط وعاد بها إلى مدينة الجزائر. ولكن قبل أن تصل إلى هناك ضاع منها الكثير في الطريق؛ ومن بين هذه المخطوطات مجموعة من الكتب الرياضيين الاغريق ومجموعة أخرى من علوم الفلسفة والطب وغيرها التي استفاد منها الجزائريون فائدة عظيمة²⁴⁰

وقد كانت الجزائر من أوائل البلدان السلامية التي أصيبت بالاستعمار الاقتصادي والفكري، فنهبت مكتباتها وبعث تراثها العربي الإسلامي إلى جانب مكتبة القاضي الحنفي محمد العربي بن عيسى التي استولى عليها الفرنسيون أيضا عند دخولهم عنوة لمنزله.²⁴¹

أما المخطوطات فأثما أيضا تبعثت وأتلفت في معظمها؛ وكانت هي أساس التعليم.²⁴² فالمستعمر قضى وخرب ونهب التراث العربي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية "كتب؛ وثائق؛ مخطوطات"؛ فضلا عن المكتبات والكتب التي أحرقها وبعثها²⁴³. هذا غيض من فيض مما قامت به سلطات الاحتلال في جبهة من جبهات حربها

²⁴⁰ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، دار البصائر، الجزائر، 2007، صص، 304-305.

²⁴¹ - سعد الله؛ ج 1 المرجع السابق؛ ص 312.

²⁴² - أبو القاسم سعد الله؛ تاريخ الجزائر الثقافي؛ ج 3؛ دار البصائر للنشر والتوزيع؛ الجزائر؛ 2007؛ ص 25.

²⁴³ - الزبير بن رحال؛ الامام عبد الحميد بن باديس: رائد النهضة العلمية والفكرية 1889 - دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع؛

الجزائر 2009، ص 33